أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي وكتابه التوهم

د.عبد الكريم اليافي

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي وكتابه التوهم

د.عبد الكريم اليافي

المقدمة

ولد نحو عام 165هـ/ 781م بالبصرة. اسم أبيه أسد وكنية الأسد أبو الحارث. فربما سمى ابنه الحارث توكيداً لهذه الكنية. ولقد جاء الفتى باكراً إلى بغداد حيث توفي بعد حياة حافلة بالعلم والتقوى عام 243هـ/ 857م. وهو من كبار الصوفية وأوائل علماء الكلام وأعلام الوعاظ البلغاء.

وأبرز ما في سيرة حياته وعظه وتعليمه وكتبه الكثيرة التي تزيد على المئة والتي يتجلى فيها احترامه العميق للسنة، وتشدده الخلقي، وبيانه الذي يعتمد على الترغيب والترهيب وعلى التنديد بنوازع الهوى ونزوات النفس، ودقته في التحليلات النفسية والتعريفات الفلسفية.

عقد له الحافظ أبو نُعَيْم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة 430هـ/ 1039م في كتابه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" ترجمة ذكر فيها أحاديث رواها وأقوالاً له ومواعظ مؤثرة واستهلّها بهذه الفقرات:

"كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً ولآثار الرسول عليه السلام مساعداً ومصاحباً. تصانيفه مسطورة، وأقواله مبوبة مشهورة، وأحواله مصححة مذكورة. كان في علم الأصول راسخاً، وراجحاً، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً، وللمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً"(1).

وترجم له الحافظ أبو بكر بن علي الخطيب البغدادي المتوفى عام 463هـ 1071م في كتابه "تاريخ بغداد"، فعده "أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن"(2).

ويورد الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى عام 465هـ 1073م في "الرسالة" عند ترجمته المحاسبي قول أبي عبد الله بن خفيف للمتصوفة: "اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم: الحارث بن أسد المحاسبي والجنيد بن محمد وأبو محمد رويم وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكي لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق"(3).

ومن الذين ترجموا له تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي 727/1327-771/1369 في كتابه طبقات الشافعية. ونحن نورد شيئاً من ترجمته له بياناً لأسلوب من التدقيق كان الأعلام القدماء يتبعونه: "يقال إنما سُمِّي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه. قال ابن الصلاح ذكره الأستاذ أبو منصور في الطبقة الأولى فيمن صحب الشافعي. وقال كان إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام.

وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها. وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية. ثم قال لو لم يكن في أصحاب الشافعي في الفقه والكلام والأصول والقياس والزهد والورع والمعرفة إلا الحارث المحاسبي لكان مُغبِّراً في وجوه مخالفيه والحمد لله على ذلك. قال ابن الصلاح: صحبته للشافعي لم أر أحداً ذكرها سواه، وليس أبو منصور من أهل هذا الفن فيعتمد فيما تفرد به، والقرائن شاهدة بانتفائها. قلت إن كان أبو منصور صرح بأنه صحب الشافعي فالاعتراض عليه لائح، وإلا فقد يكون أراد بالطبقة الأولى من عاصر الشافعي وكان في طبقة الآخذين عنه. وقد ذكره في الطبقة الأولى أيضاً أبو عاصم العبادي وقال كان ممن عاصر الشافعي واختار مذهبه، ولم يقل كان ممن صحبه. فلعل هذا القدر مراد أبي منصور"(4).

أشرنا آنفاً إلى تعريفاته الفلسفية وتحليلاته النفسية. وقد أورد السبكي فيما أورده قوله: "حسن الخلق احتمال الأذى، وقلة الغضب، وبسط الرحمة وطيب الكلام. ولكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر. والعمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح"(5).

ويعرض صاحب طبقات الشافعية بعض تعليقات القدماء على تعريف المحاسبي للعقل.

"قال إمام الحرمين في "البرهان" عند الكلام في تعريف العقل: "وما حوّم عليه أحد من علمائنا غير الحارث المحاسبي فإنه قال: العقل غريزة يُتأتى بها درك العلوم وليست منها. وقد ارتضى الإمام كلام الحارث هذا كما ترى وقال عقيبه: إنه صفة إذا ثبتت يُتأتى بها التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي من مستند النظريات. وهو منه (أي من إمام الحرمين) بناءً على أن العقل ليس بعلم والمعزو إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري أنه العلم. وقال القاضي أبو بكر (الباقلاني): إنه بعض العلوم الضرورية. والإمام حكى في "الشامل" مقالة الحارث هذه التي استحسنها وقال: إنّا لا نرضاها ونتهم فيها النقلة عنه. ثم قال: ولو صح النقل عنه فمعناه أن العقل ليس بمعرفة الله تعالى وهو إذا أطلق المعرفة أراد بها معرفة الله. فكأنه قال: ليس العقل بنفسه بمعرفة الله تعالى ولكنه غريزة. وعنى بالغريزة أنه عالم لأمر جبل الله عليه العاقل ويتوصل به إلى معرفة الله. انتهى كلامه في "الشامل". والمنقول عن الحارث ثابت عنه. وقد نص عليه في كتاب "الرعاية". وكان إمام الحرمين نظر كلام الحارث بعد ذلك. ثم لاحت له صحته بعدما كان لا يرضاه. واعلم أنه ليس في ارتضاء مذهب الحارث واعتقاده ما ينتقد، ولا يلزمه قول بالطبائع ولا شيء من مقالات الفلاسفة كما ظنه بعض شراح كتاب "البرهان". وقد قررنا هذا في غير هذا الموضع. وقول إمام الحرمين إنه أراد معرفة الله ممنوع فقد قدمنا عن الحارث بالإسناد قوله إنه نور الغريزة يقوى ويزيد بالتقوى. نعم الحارث لا يريد بكونه نوراً ما تدعيه الفلاسفة"(6). وتظهر هذه المناقشة حرص علماء المسلمين على صفاء العقيدة.

كان السلف– رضوان الله عليهم– حين يكتبون يَزِنُون الكلمات في ميزان الدلالة بدقة ويمحصونها تمحيصاً. ورد في مستهل بحثنا قول أبي نعيم في المحاسبي: "كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً وللمخالفين الزائغين قامعاً". والحق أن الحارث كان رائداً في علم الأصول الذي يراد به هنا علم التوحيد أو علم الكلام. ولا بد في بيان ريادته هذه أن نعتمد على مؤلف مشهور في تأريخ النحل وهو الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548/1153). فقد عقد في كتابه "الملل والنحل" فقرة ضافية وذات دلالة عن نشوء "الصفاتية" نورد نصها فيما يأتي لأهميتها في هذا المضمار.

"اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات جبرية. ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة. فبلغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بالمحدثات، واقتصر بعضهم على صفات دلت الأفعال عليها وما ورد به الخبر. فافترقوا فرقتين، منهم من أوّلها على وجه يحتمل اللفظ ذلك، ومنهم من توقف في التأويل وقال: عرفنا بمقتضى العقل أن الله ليس كمثله شيء، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها، وقطعنا بذلك إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى:]الرحمن على العرش استوى[(7)، ومثل قوله:]خلقتُ بيديَّ[(8)، ومثل قوله:]وجاء ربك[(9) إلى غير ذلك. ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها. بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له وليس كمثله شيء، وذلك قد أثبتناه يقيناً. ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف فقالوا: لا بد من إجرائها على ظاهرها والقول بتفسيرها كما وردت من غير تعرض للتأويل ولا توقف في الظاهر، فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف.

... أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا استهدفوا للتشبيه فمنهم مالك بن أنس(10) رضي الله عنه إذ قال: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، ومثل أحمد بن حنبل(11) وسفيان(12) وداود الأصفهاني(13) ومن تابعهم حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي(14) وأبي العباس القلانسي(15) والحارث بن أسد المحاسبي. وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية. وصنف بعضهم ودرّس بعض حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري(16) وبين أستاذه (أبي علي الجبائي)(17) مناظرة في مسألة الصلاح والأصلح فتخاصما وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بحجج كلامية، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتية إلى الأشعرية. ولما كانت المشبّهة(18) والكرامية(19) من مثبتي الصفات عددناهم فرقتين من جملة الصفاتية"(20).

أما قمعه للمخالفين الزائغين في كلام أبي نعيم فإنما يراد به رده على المعتزلة حين عطلوا الصفات

واتفقوا على نفي رؤية الله بالأبصار في دار القرار. ومن الضروري أن نوضح معنى تعطيل الصفات، وقضية الرؤية.

ذلك أن علماء الكلام من الأشاعرة ذهبوا إلى أن صفات الله تعالى على أربعة أنواع: الأول صفة نفسية وهي الوجود. والثاني صفات سلبية وهي خمس: القدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية. والثالث صفات معان وهي القدرة والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. والرابع صفات معنوية وهي سبع كونه قادراً، ومريداً، وعالماً، وحياً، وسميعاً، وبصيراً، ومتكلماً.

أما الصفة النفسية فهي عند الأشعري عين الموصوف. فالوجود عين الموجود عنده. وهي عند غيره غير الذات. فالوجود عندهم غير الموجود. وأما الصفات السلبية الخمس فهي غير الذات بمعنى أنها غير قائمة بالذات. فالقدم مثلاً يسلب عنه الحدوث وهكذا بقية هذه الصفات. أي أنها أمور عدمية. وأما صفات الأفعال مثل الإحياء والإماتة والرزق والعون وأشباهها فهي غير الذات أيضاً بمعنى أنها منفكة عنها من قِبَل أنها عند التحقيق تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة. وأما الصفات المعنوية فلا خلاف فيها ويثبتها المعتزلة وهي أنه قادر بذاته ومريد بذاته وعالم بذاته وهكذا ولكنهم نفوا عنه صفات المعاني أي الصفات التي هي معان أي ليست هناك صفة تسمى العلم ولا صفة تسمى الإرادة ولا صفة تسمى القدرة... وذلك لأن الصفة غير الموصوف ولو أثبتنا له سبحانه وتعالى صفات غير ذاته لم يكن بد من أمرين فإما أن تكون هذه الصفات حادثة وإما أن تكون قديمة. فإن كانت حادثة لزم قيام الحادث بالقديم وهو محال. وإن كانت قديمة لزم أن يكون هنالك قدماء متعددة بتعدد الصفات زيادة على الذات وهذا هو الشرك.

ولكن الأشاعرة يرون أنه لا يلزم من ذلك تعدد القدماء كما زعم المعتزلة، لأن كل صفة من صفات المعاني وإن كانت غير سائر الصفات إلا أنها لازمة للذات ولا تنفك عنها. فهي دائمة الوجود، مستحيلة العدم. فهو حي بحياة، عالم بعلم، قادر بقدرة، وهكذا. والمحظور هو تعدد القدماء المتغايرة، ولا تغاير هنا بين الذات والصفات ولا بين الصفات بعضها مع بعض فينتفي التعدد. فتلك الصفات زائدة على الذات قائمة بها لازمة لها لزوماً لا يقبل الانفكاك.

هذا وربما كان الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة لفظياً لأن القول بأنها ليست بغير الذات محمول على الغير الذي ينفك عن الذات وإن كانت غيراً في المفهوم والتصور.

ومما حصل فيه النزاع أيضاً رؤية العباد ربهم. فذهب المعتزلة إلى أن العقل يحكم بامتناعها لأن الرؤية لا تتحقق إلا متى كان المرئيّ في الجهة المقابلة لنظر الرائي وهو سبحانه ليس جسماً ولا في جهة من الجهات. وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يجوز أن يرى والمؤمنون في الجنة يرونه منزهاً عن

المقابلة والجهة والمكان، إذ هذه الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه لا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك. وقد أوّل المعتزلة ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من إشارة إلى ذلك. وعمد المحاسبي رداً على المعتزلة في نهاية كتابه "التوهم" الذي هو شطر مهم في بحثنا إلى تصور تلك الرؤية على أنها غبطة يفوز بها أهل النعيم في الجنة كما سنرى.

كان الحارث واعظاً بليغ الكلام يأخذ وعظه بمجامع القلوب ويخلب الأسماع ويسترق الأفهام ويستدر المدامع حتى تغرورق بها العيون. نقل صاحب تاريخ بغداد في ترجمته للمحاسبي ما حدث به إسماعيل بن إسحاق السراج: "قال لي أحمد بن حنبل يوماً: يبلغني أن الحارث هذا- يعني المحاسبي- يكثر الكون عندك. فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه! فقلت: السمع والطاعة يا أبا عبد الله. وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله. فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة. فقلت: وتسأل أصحابك أن يحضروا معك. فقال: يا إسماعيل فيهم كثرة فلا تزدهم على الكُسْب[1] والتمر، وأكثر منهما ما استطعت. ففعلت ما أمرني به، وانصرفت إلى أبي عبد الله فأخبرته. فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار، فاجتهد في ورده حتى فرغ. وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث، وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل. فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة. فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون، وكأن على رؤوسهم الطير. فمنهم من يبكي، ومنهم من يزعق، وهو في كلامه. فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله، فوجدته قد بكى حتى غُشِي عليه، فانصرفت إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقاموا وتفرقوا. فصعدت إلى أبي عبد الله، وهو متغير الحال. فقلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل. وعلى ما وصفت من أحوالهم فإني لا أرى لك صبحتهم. ثم قام وخرج"(21).

ويعلق الإمام ابن السبكي في كتابه "طبقات الشافعية" بعد أن يورد هذه الرواية فيخاطب القارئ:

"تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة. واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم. فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد فيخاف على سالكه وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر ولكل رأي واجتهاد"(22).

ولكن الخلاف بين أحمد والحارث مشهور. فقد "كان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام وتصانيفه الكتب فيه"(23). بل كان الإمام "شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام خوفاً أن يجرّ ذلك إلى ما لا ينبغي. ولا شك في أن السكوت عنه ما لم تدع الحاجة أولى. والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة. وكان الحارث قد تكلم في شيء من مسائل الكلام. قال أبو القاسم النصراباذي: بلغني أن أحمد

1 هو ثُفْل الدهن إشارة إلى التقلل.

بن حنبل هجره بهذا السبب. قلت: والظن بالحارث أنه إنما تكلم حين دعت الحاجة. ولكل مقصد"(24).

والذي نراه أن إنكار صاحب "المسند" وأمثاله من أهل الحديث على المحاسبي وأمثاله من الوعاظ والصوفية يرجع قسم كبير منه إلى اعتماد هؤلاء في مواعظهم وأفكارهم على الأحاديث الضعيفة الأسانيد. ذلك أن أهل الحديث يحرصون كل الحرص على صحة الرواية وأهل المواعظ قد يلجؤون إلى أحاديث مستجرحة للترغيب والترهيب ولكنها بالغة التأثير يقبلها العامة لأنها أقرب إلى التمثيل بالأشياء المحسوسة.

وعندنا أن مثل الأئمة المسلمين في مذاهبهم مثل أصحاب هندسات أقليدس وريمن ولوبتشفسكي في علومهم الرياضية. فكما أن هؤلاء بنوا هندساتهم على مصادرات واستنبطوا منها تصوراتهم كذلك كان أولئك الأئمة يعتمدون ما يمكن أن ندعوه مصادرات أو أصولاً للبحث وهذه هنا ذات مراتب وأكثر عدداً وأشد اشتباكاً. ومن الواضح أنه بعد الأصول المعتمدة الأربعة وهي القرآن والسنة والقياس والإجماع يأتي مدى الاعتماد على أحاديث الآحاد ومبدأ الاجتهاد ومبدأ المصالح المرسلة وهي الأوصاف التي تعرف علّيتها ولم يشهد لها الشرع بالاعتبار ولا بالإبطال، ولا سيما إذا كانت المصلحة ضرورية قطعية كلية. وهذه أمور داخلة في مباحث أصول الدين الواسعة. وكان الأئمة القدماء يحترم بعضهم بعضاً ويقدر بعضهم جهود بعض وبحوثه وتقواه ووجهات نظره. ثم جاء المتأخرون فغلا بعضهم في تجريح الآخرين أو التشنيع عليهم وهذا ليس من عادة الأبرار ولا من شأن المفكرين الأحرار. وإذا كان الإمام السبكي قد قال في تعليقه: "ولكل مقصد" فنحن نقول: "ولكل مبادئه التي يبني عليها اعتباراته" وهكذا لا نستغرب قول أبي زرعة تلميذ ابن حنبل حين سئل عن المحاسبي وكتبه فأجاب السائل: "إياك وهذه الكتب. هذه كتب بدع وضلالات. عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة. بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع"(25).

ولد الحارث في زمن الخليفة الهادي ولما تولى هارون الرشيد الخلافة (سنة 170هـ/ 786م) كان يناهز الخامسة. وقد عاصر خلافة الأمين (193/809م) والمأمون (198/813م) والمعتصم (218/833م) والواثق (227/842م) والمتوكل (232/847م) إذ توفي في عهده.

وهكذا كان عصر الحارث من أبهى عصور الخلافة العباسية وأكثرها غنى ووفرة وازدهاراً. كانت العلوم بأنواعها مزدهرة وكانت الزراعة والتجارة رائجين أي رواج، وكانت القوافل تجوب الطرق البرية محملة بأصناف السلع بين قطر وآخر وكانت البواخر تصل بين أقطار المعمورة مشحونة بأصناف

الخيرات من لباس وطعام وتوابل وغيرها. وكانت البصرة من المرافئ المزدهرة إذ ذاك وكان الملاحون إلى جانب حمولات مراكبهم يروون للناس ما شاهدوه في الأقطار النائية كالهند والصين والجزر المنتشرة في خطوط ملاحتهم. وطفق الناس يميلون إلى استماع هذه الأخبار دقيقة أو مبالغاً فيها وإلى قراءة ما يدوّن منها وكذلك ما يترجم من لغات الأقوام الأخرى ولا سيما ما نقل عن الفرس والهند مما يمثل آداب تَيْنك الأمتين ويصف حكمة حكمائهما وأحوال رعاياهما. وشرعت تتكون طائفة من تلك الأخبار المروية والمتناقلة متعددة المصادر ومتفاوتة المقاصد بعضها للتسلية ولترويح النفس وبعضها للموعظة والاعتبار وبعضها للتبصرة والإفادة، وسوف ينضم بعضها إلى بعض في غمار السنين لتؤلف السير الشعبية المشهورة التي تأتي في طليعتها قصة "ألف ليلة وليلة" إذ كانت نواتها التي تجمعت حولها تلك القصص والأخبار رواية "هزار أفسانه" التي نقلت عن الفارسية. ولا شك في أن بعض تلك القصص من أصل بغدادي تصور جوانب الترف التي كانت تتألق في قصور الخلفاء والأمراء والتجار ورجال الجيش وكتاب الدواوين، ومن المعلوم أن الغنى الفاحش لا يأتي بالطرق المشروعة وأن الترف لا يرضى عنه أهل الورع والتقوى، كذلك هو موضع نقمة على لسان الشعراء الحساسين المحرومين مثل ابن الرومي (221/836–283/896). ولئن بدا هذا الشاعر في بعض الأحيان راضياً عن الحياة الطبيعية المعطاء والدولة الزهراء في قصيدته التي مطلعها:

ضحك الربيع إلى بكا الديم فغدا يسوّي النبت بالقمم

إذ يقول:

والدولة الزهراء والزمن المز هار حسبك شافيي قرم

نجدُهُ في قصائد أخرى يندب حظه ويرثي لحاله ويحسد غيره من المحظوظين في الدنيا:

أتراني دون الأولى بلغوا الآ مال من شُرْطة ومن كتّاب
وتجارٍ مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس والأحباب

ثم يتفنن في وصف النعيم والملذات والمجالس والحياة اللاهية التي كان يشاهدها أو يسمع أخبارها:

درُّ صهباء قد حكى درّ بيضا ء عروب كدمية المحراب
تحمل الكأس والحليَّ فتبدو فتنة الناظرين والشرّاب
يا لها ساقياً تديره يداه مستطاباً ينال من مستطاب
لذة الطعم في يدي لذّة الملـ ثم تدعو الهوى دعاء مجاب
حولها من نجارها عِينُ رَمْلٍ ليس ينفك صيدها أُسْد غاب
يونقُ العينَ حسن ما في أكف ثَمَّ تسقي وحسن ما في رقاب
فمٌ شارب رحيقاً وطَرفٌ شارب ماء لبّةٍ وسخاب
ومزاج الشراب إن حاولوا المز ج رضاب يا طيبَ ذاك الرضاب
من جوارٍ كأنهن جوارٍ يتسلسلن من مياه عذاب(٢٦)
لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقراق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهبن أي التهاب
فترى الماء ثَمَّ والنار والآ لَ بتلك الأبشار والأسلاب

ويمضي الشاعر في وصف تلك المجالس المترعة بالجمال والترف واللهو والإغراء لينتقل إلى التنديد بأربابها الذين يجلسونها والذين طاش توزيع الثروة فأصابهم منها النصيب الوفير:

فتخايلن باهتزاز غصون ناعمات وبارتجاج روابي
ناهدات مطرّقات يما نعـ ـنك رمانهن بالعنّاب
لو ترى القوم بينهن لأجبر ت صراحاً ولم تقل باكتساب

يريد أن يقول: إن المرء لدى رؤيته ذلك يفضي إلى الجبر لا إلى الكسب والاختيار حين لا تنظم الأمور الاقتصادية تنظيماً عادلاً يمنع الاستغلال والتفاوت الكبير بين حظوظ الناس:

من أناس لا يرتَضون عبيداً وهُمُ في مراتب الأرباب

ولا عجب أن يحفز على الثورة الدموية وهو الشاعر الرقيق:

لـهـف نـفـسـي عـلـى مـنـاكـيـر لـلـنـكـ ـر غـضـاب ذوي سـيـوف غـضـاب
تـغـسـل الأرض بـالـدمـاء فـتـضـحـي ذات طـهـر تـرابـهـا كـالـمـلاب
مِـنْ كـلابٍ نـأى بـهـا كـلَّ نـأي عـن وفـاء الـكـلاب غـدرُ الـذئـاب
وإثـبـاتٍ عـلـى الـظـبـاء ضـعـافٍ عـن وِثـاب الأسـود يـوم الـوثـاب

يبدو من خلال هذه الأبيات المنددة الثائرة التهجم اللاذع على الموسرين المتمولين كما نستشف إشارة إلى قضايا الجبر والكسب والاختيار مما كان موضوع جدال بين المذاهب الفلسفية الكلامية إذ ذاك. في هذا الجو الموّار كالبحر ذي الأمواج المتلاطمة بمختلف النزعات والآراء نشأ الحارث في مجالس العلم الديني وحلقات الورع وندوات التقوى فنهض يدافع عن سلامة المجتمع إزاء الترف واللهو ويناضل الاتجاهات التي رآها منحرفة عن مصالح الشعب والرعايا وذلك بالوعظ وهو التبليغ المدقق في نزوات النفوس وفي ميول الطباع ثم بالتأليف المنافح عن صحة العقيدة كما يراها وزيادة على ذلك كله بالمثل الخلقي المتحرج العنيف الذي ضربه في سلوكه وسعيه وتزهده وتصوفه الجانح نحو التقشف الشديد كأن هذا التقشف تعديل يقابل ذلك اللهو والترف ويناقضهما.

ذكر أبو نعيم الأصبهاني قول الجنيد: "كان الحارث كثير الضر فاجتاز بي يوماً وأنا جالس على بابنا، فرأيت في وجهه زيادة الضر من الجوع فقلت له: يا عم لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا! فقال: أوتفعل؟ قلت: نعم وتسرني بذلك وتبرّني. فدخلت بين يديه ودخل معي وعمدت إلى بيت عمي- وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا- سريعاً فجئت بأنواع كثيرة من الطعام فوضعته بين يديه. فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه فرأيته يلوكها ولا يزدردها فخرج وما كلمني. فلما كان الغد لقيته فقلت: يا عم! سررتني ثم نغّصت عليّ. فقال: يا بني! أما الفاقة فكانت شديدة. وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته إليّ. ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً ارتفع إلى أنفي منه فورة فلم تقبله نفسي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت"(27).

وعندنا أن الحارث حاكت في نفسه شبهة في هذا الطعام المجلوب من عند غني واسع الحال فلم يستطع أن يستسيغه على جوعه وسغبه. ومن المعروف علاقة جهاز الهضم بالأمور النفسية في الطب الجسدي النفساني.

جاء في كتاب "حلية الأولياء" أن الجنيد وهو تلميذ المحاسبي كان يقول: "ما أخذنا التصوف عن القال والقيل، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات، لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله، وأصله العزوف عن الدنيا، كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري"(28).

بل كان المحاسبي يؤثر الخصاصة والفقر على الغنى ولو أمكن الغنى وتيسر. قال الجنيد أيضاً: "مات أبو الحارث المحاسبي وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلَّف أبوه مالاً كثيراً وما أخذ منه حبة واحدة، وقال: أهل مِلَّتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفياً"(29). وفي رواية القشيري: "لأن أباه كان يقول بالقدر"(30) أي كان معتزلياً والواقفية نحلة من المعتزلة.. وموقف الحارث هذا من قبيل الورع والتحرج والتقشف فإن اختلاف المذهب في نطاق الإسلام لا يحول دون الميراث. كذلك كان المحاسبي يرى فقر الفقراء أفضل من غنى الأغنياء ولو صرف هؤلاء أموالهم في سبل مشروعة خوفاً من شغل البال والاهتمام بها والانصراف عن جوهر العبادة، أي كان يرى أن الفقير الصابر خير من الغني الشاكر.

ولكن أئمة آخرين من الحنابلة وأهل الحديث والفقه لا يرضون عن الغلوّ في التقشف. ولكل من هؤلاء الأعلام مبادئه ومقاصده كما ذكرنا آنفاً. عقد أبو الفرج بن الجوزي فصلاً في كتابه "تلبيس إبليس" جاء في الباب التاسع منه قوله: "لا يلتفت إلى قول الحارث المحاسبي وأبي طالب المكي فيما ذكرا من

تقليل المطعم ومجاهدة النفس بترك مباحاتها فإن اتباع الشارع وصحابته أولى. وكان ابن عقيل يقول: ما أعجب أموركم في التدين، إما أهواء متبعة، أو رهبانية مبتدعة، بين تجرير أذيال المرح في الصبا واللعب وبين إهمال الحقوق واطّراح العيال واللحوق بزوايا المساجد. فهلا عبدوا على عقل وشرع"(31).

ويناقش ابن الجوزي مسألة الخروج عن الأموال والتجرد عنها ورأي المحاسبي في أن ذلك أفضل من جمع المال الحلال ورأيه في أن الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف يوقف في عرصة القيامة بسبب مال كسبه من خلال للتعفف ولصنائع المعروف فيمنع من السعي إلى الجنة مع فقراء المهاجرين فهو يحبو في آثارهم حبواً، لأن ادخار المال وجمعه خوفاً من الفقر في رأي الحارث من سوء الظن بالله وقلة اليقين بضمانه وكفى بذلك إثماً... وقد جاراه أبو حامد الغزالي في ذلك وقواه.. فينتهي أبو الفرج إلى أن "هذا كله بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال"(32) ثم يشرع فيوضح شرف المال الحلال وحسن النظر في طرق صرفه في إعفاف النفس والعائلة والادخار لحوادث الزمان وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح فجمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي في المحاسبي: "هو أستاذ أكثر البغداديين"(33). من أساتذته في الرواية يزيد بن هارون، وطبقته. والرواية ركن من أركان الحضارة العربية الإسلامية.

وممن روى عنه أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الصوفي وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي والشيخ الإمام الجنيد وإسماعيل بن إسحاق السراج والقاضي أبو علي الحسين بن خيران وأحمد بن القاسم بن نصر وأحمد بن عبد الله بن ميمون وغيرهم. ولقد كان أثر المحاسبي في الإمام أبي حامد الغزالي كبيراً ولا سيما في كتابه "إحياء علوم الدين" فهو يذكر كتب المحاسبي ويورد جملاً وعبارات من كلامه.

أما كتبه المطبوعة فهي:

1-بدء من أناب إلى الله:

نشره المستشرق الألماني هلموت ريتر بمناسبة مؤتمر المستشرقين التاسع عشر الذي عقد في رومة (29-23 أيلول 1935).

2-الرعاية لحقوق الله عز وجل:

نشرته المستشرقة الانكليزية مرغرت سميث. Margaret Smith.

.E.J.W. Gibb memorial, New series XV. 1940

3-كتاب التوهم:

عني بنشره المستشرق الانكليزي الدكتور ا.ج. آربري- القاهرة- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937 وقدم له أحمد أمين.

4-رسالة المسترشدين:

حققها وأخرج أحاديثها وعلق عليها عبد الفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية حلب- الفرافرة 1384/1964.

5-الوصايا والنصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية:

نشره عبد القادر أحمد عطا القاهرة 1384/1964.

6-العقل وفهم القرآن:

قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي دار الكندي ودار الفكر- الطبعة الثانية 1398هـ- 1978.

7-المسائل في أعمال القلوب والجوارح والعقل:

نشره عبد القادر أحمد عطا القاهرة 1969.

ومن كتبه المشهورة

8-الدماء:

يرى فيه أن الدماء التي أريقت بين الصحابة لا تمس وحدة العقيدة. جاء في كتاب تاريخ بغداد "وذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء فقال: على هذا الكتاب عوّل أصحابنا في أمر الدماء بين الصحابة".

9-رسالة المكاسب والورع والشبهات.

10-رسالة العظمة.

11-المسائل في الزهد.

12-كتاب التفكر والاعتبار.

13-رسالة المراقبة.

14-فصل في المحبة- ذكره أبو نعيم في الحلية.

15-القصد والرجوع إلى الله.

وممن تناول الحارث بن أسد المحاسبي بالبحث والدراسة المستشرقة مرغريت سميث في كتابها:

An Early Mystic of Bagdad, a study of the life and teaching of Harith B. Asad al-Muh?sibï, Ad 781- Ad 857.

London- Sheldon Press, 1935.

والشيخ عبد الحليم محمود في كتابه:

Al Mohasibi un mystique musulman religieux et moraliste, Geuthner, Paris, 1940.

وهو رسالة نال بها شهادة الدكتوراه.

والمستشرق الألماني ي. فان إس J. Van Ess

في كتابه:

Die Gedankenwelt des Harit al Muhasibï anh?nd von übersetzungen aus seinen Schriftenn dargestellt und erlaütert, 1961, Bonn.

وفي هذا الكتاب عرض واسع لمؤلفات الحارث.

كيف كان الحارث يؤلف كتبه

يروي أبو نعيم في الحلية أن أبا القاسم الجنيد بن محمد قال: "كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا فيقول: اخرج معي نُصْحِر فأقول له: تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول: اخرج معي ولا خوف عليك. فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء، لا نرى شيئاً نكرهه. فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي: سلني، فأقول له: ما عندي سؤال أسألك. فيقول لي: سلني عما يقع في نفسك. فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها، فيجيبني عليها للوقت ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتباً"(34).

ونفهم من هذا الخبر قوة شخصية المحاسبي. فقد كانت تهيمن على مريده الجنيد وهو مَنْ هو ذكاءً وفضلاً وعلماً حتى كانت شوارع بغداد عاصمة الدنيا إذ ذاك تبدو فارغة من المفاتن وتلك "الشهوات والآفات"، ثم إن التنزه والجلوس في خارج المدينة كانا يسبلان الهدوء والارتياح والطمأنينة عليهما، ثم إن السؤال والجواب كانا وسيلتين للمحاورة واقتداح الفكر ووضوح التصورات وتداعي الخواطر وارتسام بعض الكلمات وتبلّر الجمل حتى إذا آب الأستاذ إلى منزله حرص على تقييدها.

ويروي صاحب الحلية أن الحارث كان يقول في إحدى مواعظه: "افهم ما أقول لك، وفرغ للفكرة فيه عقلك، وأدم له توهمك، وتوهمه بذهنك، وأحضر لبك واشتغل بذكره وبقطع كل مذكور سواه، ومتوهم غيره. فإنا خُلِقنا للبلوى والاختبار، وأُعد لنا الجنة أو النار، فعظم ذلك الخطر، وطال به الحزن لمن عقل وادكر حتى يعلم أين يكون المصير والمستقر، ذلك بأنه عصى الرب، وخالف المولى، وأصبح بين الغضب والرضا، لا يدري أيهما قد حل به ووقع، فعظم لذلك غمّه، واشتد به كربه، وطال له حزنه، حتى يعلم كيف عند الله حاله. فإليه فارغب في التوفيق، وإياه فسل العفو عن الذنوب، واستعن بالله في كل الأمور. فالعجب كيف تقر عينك أو يزول الوجل عن قلبك، وقد عصيت ربك، والموت نازل بك لا محالة بكربه وغصصه ونزعه وسكراته. فكأنه قد نزل بك وشيكاً فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، فتوهم ذلك بقلب فارغ وهمة هائجة من قلبك بالرحمة لبدنك الضعيف، وارجع عما يكره مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك وأعتِبْه واستقله عثراتك وابك من خشيته عسى أن يرحم عبراتك. فإن الخطب عظيم، والموت منك قريب، ومولاك مطلع على سرك وعلانيتك، واحذر نظره إليك بالمقت والغضب وأنت لا تشعر فأجِلَّ مقامه ولا تستخف بنظره، ولا تتهاون باطلاعه، واحذره، ولا تتعرض لمقته. فإنه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لك بعذابه"(35).

وإذا طالعنا كتاب "التوهم" وجدنا هذه الجمل تكاد تكون هي نفسها في مستهله. أي إن هذا الكتاب أصله موعظة مؤثرة عمد قائلها بعد إلقائها إلى توسعتها واستكمالها على شكل كتاب وجعل لفظ التوهم

المتكرر فيها عنواناً له. وهو يطلب إلى السامع ثم بعده إلى القارئ أن يتوهم حال الموت وما بعدها من نشور وحساب وجحيم أو نعيم كما يفصل المؤلف ذلك في كتابه تفصيلاً بديعاً ورائعاً أقرب ما يكون إلى الترغيب والترهيب والعمل على إصلاح النفس وتحسين السلوك والمعاملة. ولا شك أن أمثال هذه المواعظ كانت تلقى بلغة سهلة وبيان واضح وقوة جازمة وحازمة ومؤثرة ولا سيما إذا كان الإلقاء في حشد جماهيري كما يحدث ذلك في المساجد، لأن التجمع والاحتشاد أقوى على العدوى النفسية وأسهل للتلقين وأفعل في تطهير النفوس وتصفية الضمائر، وكذلك إذا كان الواعظ أهلاً للوعظ ومتميزاً بالأمانة ورفعة المكانة ومحط الأنظار في التقشف والزهد والتقوى والعبادة.

اهتم بمخطوطة "التوهم" المستشرق الانكليزي أرثر اربري الذي درّس في كلية الآداب بالجامعة المصرية سابقاً ونشره لأول مرة في القاهرة عام 1937 ويقع في 63 صفحة مع مقدمة موجزة قدمها له الباحث المشهور أحمد أمين صديق المستشرق.

وقد أعاد طبعه ونقله إلى الفرنسية مع مقدمة وحواش وتعليقات مفيدة المستشرق أندري رومان André Roman في كتابه:

Une Vision Humaine des Fins Dernières, Le Kit?b al- Tawahhum d'al Muh?sibï, Librairie C. Klincksieck Paris 7e- 1978.

ويبدو لنا أنه اعتمد النص الذي أخرجه أربري لأن في الطبعتين بعض الأخطاء اللغوية أنفسها ففي الصفحة الثانية من نسخة أربري والفقرة الثامنة من نسخة رومان:

فذلّت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت. والصواب لما عانيت ذلك.

وفي الصفحة العاشرة في النسخة الأولى والفقرة الرابعة والثلاثين في النسخة الثانية فلم يحاسّ(؟) من الخلائق أحداً.

والصواب فلم يحاش بالشين أي لم يستثن.

وفي الصفحة الثلاثين من النسخة الأولى فمثّلك (؟) لا تجاب.

وفي الفقرة المائة من النسخة الثانية فمَثّلْك لا تجاب.

والصحيح فَمِثْلُكَ لا تجاب أو لا يجاب أي أنت أقل من أن تجاب.

والتعبير أدبي شائع في اللغة العربية يذكره علماء البلاغة في إثبات الحكم بطريق الكناية التي هي أبلغ كقولك مثلك لا يبخل بمعنى أنت لا تبخل وذلك في بحث تقديم المسند إليه كاللازم(36).

وثمة أخطاء أخرى من السهل تلافيها.

يشعر القارئ لكتاب "التوهم" إلى جانب الشعور الديني العميق كأنه يطالع رواية. لكن أحداث هذه الرواية تبدأ عند كرب النزع لتصف غصص الموت وأحوال القبر وأهوال الحشر والحساب والمرور على الصراط والعرض على الجحيم والفوز بالنعيم وتشرح كل ذلك شرحاً مفصلاً وطريفاً يترجح بين الخوف والرجاء والترهيب والترغيب وتترقى الرواية شيئاً فشيئاً لتصف عذاب جهنم لمن حق عليهم العذاب ونعيم الجنان لمن فازوا بحسن المآب ثم تلك الغبطة الكبرى وهي النظر إلى وجهه تعالى.

ونحن نود أن نعرض على القارئ الكريم ثلاثة نصوص من الكتاب توضح طريقة الوعظ ترهيباً وترغيباً وكيف ينهض المؤلف من خلال الوعظ إلى الرد على المعتزلة:

(1)

... حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حسَّ يسمع، ولا شخص يُرى وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يُفْجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم.

فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تأتي إلى العرض على الملك الأعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء. فبينا أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك، فوثبت مغبَّراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك، قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبَّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم. فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت يمده المنادى، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتى إذا وافيتَ الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نُزع المُلك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذلّ أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه. ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرا الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطية أصابتها؛ فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلّهم البعث وجمع بينهم النشور. حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها. فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافّات ما يتشقّق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: (فكانت وردةً كالدهان((37)، (يوم تكون السماءُ كالمُهْل وتكون الجبال كالعِهْن((38). (فقال المفسرون إن المهل هي الفضة المذابة يخالطها صفرة، وإن العهن هو الصوف المنفوش، وقوله وردة كالدهان كلون الفرس الورد). فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها

إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلوّ أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل- كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال، حدثنا رشدين بن سعد عن أبي السمح عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي (أنه قال: [لله ملَكٌ ما بين مواقي عينيه إلى آخر شفره مسيرة مائة عام]؛ حدثني يحيى بن غيلان قال، حدثنا رشدين بن سعد عن ابن عباس بن ميمون اللخمي عن أبي قبيل عن عبد الله عن عمرو بن العاص عن النبي (أنه قال: [لله عز وجل ملك ما بين شفري عينيه مائة عام]- فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم. فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجسام، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفاً واحداً، حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمِن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرِّها واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه- عن عمير بن سعيد قال: جلست إلى ابن عمرو أبي سعيد الخدري، وذلك يوم الجمعة فقال أحدهما لصاحبه: إني سمعت رسول الله (يقول: أين يبلغ العرق من ابن آدم يوم القيامة؟ فقال أحدهم: شحمة أذنيه، وقال الآخر: يلجمه، فقال ابن عمر: هكذا وخط من فيه إلى شحمة أذنيه، فقال: ما أرى ذلك إلا سواء.

عن خيثمة عن عبد الله قال: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها يرون كواعبها وأكوابها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيخ في الأرض قامته، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قال: فقالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: فقال: مما يرى الناس يلقون. عن ابن عمر قال: قال رسول الله (: إن الرجل (وقال علي مرةً أن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام. عن عبد الله رفعه إلى النبي (أن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم، (وقال علي من طول القيام قالا جميعاً) حتى يقول ربِّ أرحني ولو إلى النار- وأنت لا محالة أحدهم؛ فتوهم نفسك لكربك وقد علاك العرق وأطبق عليك الغم وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، فما ظنك

بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا ينفح وجوههم ريح ولا طيب نسيم، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم حتى بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به.

(2)

فتوهم قلبك في الجنان وقد قامت بين يديك قهارمتك معظمين لك ثم الوصفاء والخدام فاستقبلوا كأنهم اللؤلؤ المكنون فسلموا عليك، ثم أقبلوا بين يديك؛ فتوهم تبخترك في موكب من قهارمتك وخدامك يزفونك زفاً إلى قصورك وما أعد لك مولاك ومليكك، فلما أتيت باب قصرك فتحت الحجاب أبوابك ورفعت لك الستور وهم قيام على أقدامهم لك معظمين، فتوهم ما عاينت حين فتحت أبواب قصورك ورفعت ستوره من حسن بهجة مقاصيره وزينة أشجاره وحسن رياضه وتلألؤ صحنه ونور ساحاته؛ فبينا أنت تنظر إلى ذلك إذ بادرت البشرى من خدامك ينادون أزواجك: هذا فلان بن فلان قد دخل باب قصره، فلما سمعن نداء البشراء بقدومك ودخولك توثبن من الفرش على الأسرة في الحجال وعينك ناظرة إليهن في جوف الخيام والقباب فنظرت إلى وثوبهن مستعجلات قد استخفهن الفرح والشوق إلى رؤيتك؛ فتوهم تلك الأبدان الرخيمة الرعبوبة الخريدة الناعمة يتوثبن بالتهادي والتبختر، فتوهم كل واحدة منهن حين وثبت في حسن حللها وحليتها بصباحة وجهها، وتثني بدنها بنعمته، فتوهم انحدارها مسرعة بكمال بدنها نازلة عن سريرها إلى صحن قبتها وقرار خيمتها فوثبن حتى أتين أبواب خيامهن وقبابهن، ثم أخذن بأيديهن عضائد أبواب خيامهن للقصر الذي ضرب عليهن إلى قدومك فقمن آخذات بعضائد أبوابهن، ثم خرجن برؤوسهن ووجوههن ينحدرن من أبواب قبابهن متطلعات ينظرن إليك مقبلات قد ملئن منك فرحاً وسروراً.

فتوهم نفسك بسرور قلبك وفرحه وقد رمقتهن ببصرك ووقع ناظرك على حسن وجوههن وغنج أعينهن فلما قابلت وجوههن حار طرفك وهاج قلبك بالسرور فبقيت كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج في قلبك من سرور ما رأت عيناك وسكنت إليه نفسك، فبينما أنت ترفل إليهن إذ دنوت من أبواب الخيام فأسرعن مبادرات قد استخفّهن العشق مسرعات يتثنين من نعيم الأبدان ويتهادين من كمال الأجسام ثم نادتك كل واحدة منهن: يا حبيبي ما أبطأك علينا؟ فأجبتها بأن قلت: يا حبيبة ما زال الله عز وجل يوقفني على ذنب كذا وكذا حتى خشيت أن لا أصل إليكن فمشين نحوك في السندس والحرير يثرن المسك ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن استعجالاً إليك وشوقاً وعشقاً لك، فأول من تقدمت منهن إليك مدت إليك بنانها ومعصمها وخاتمها كما قال النبي عليه السلام؛ فتوهم حسن بنان أنشئ من الزعفران والكافور، ونعم في الجنان الألف من الدهور، فتوهمه حين مدَّته إليك يتلألأ نوراً ويضيء إشراقاً، فلما وضعت بنانها في بنانك وجدت مجسَّة ليِّنة بنعيمه وكاد أن ينسل من يديك للينه، وكاد عقلك أن يزول فرحاً بما وصل إلى قلبك من طيب مسيس بنانها، ثم مدت يدك إلى جسمها الرخيم الناعم فضمتك إلى نحرها فانثنيت عليها بكفك وساعدك حتى وضعته على قلائدها من حلقها، ثم ضممتها إليك وضمتك إليها؛ فتوهم نعيم بدنها لما ضمتك إليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه، فتوهم ما باشر صدرك من حسن نهودها ولذة معانقتها، ثم شممت طيب عوارضها فذهب قلبك

من كل شيء سواها حتى غرق في السرور وامتلأ فرحاً لما وصل إلى روحك من طيب مسيسها ولذة روائح عوارضها؛ فبينا أنت كذلك إذ تمايعن عليك فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك فملأن وجهك بأفواههن ملتثمات وملأن صدرك بنهودهن فأحدقن بك بحسن وجوههن وغطين بدنك وجللنه بذوائبهن واستجمعت في مشامك أراييح طيب عوارضهن؛ فتوهم نفسك وهن عليك منكبات بفيك ملتثمات متشممات عليك متثنيات بنعيم أبدانهن، لهن استراحة عند ضمك إليهن لشدة العشق وطول الشوق إليك متشبثات بجسمك ومتنعمات بنسيم أراييح عوارضك، فلما استمكنت خفة السرور من قلبك وعمت لذة الفرح جميع بدنك وموعد الله عز وجل في سرورك فناديت بالحمد لله الذي صدقك الوعد وأنجز لك الموعد، ثم ذكرت طلبك إلى ربك إياهن بالدؤوب والتشمير، فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن. (لمثلِ هذا فلْيَعملِ العامِلون((39).

(3)

فتوهم نفسك إذ منَّ عليك ربك وأنت لاصق برفيقك منكبك بمنكبه، وقد دنوتما من أشجار الجنة فنفضت ثمرها فوقعت الثمار في أيديكما وأيدي أولياء الرحمن، ثم تنحت بأصولها عن طريقهم فهم يسيرون فرحين، وقد شخصت قلوبهم بالتعلق إلى نظر حبيبهم فهم يسيرون بالسرور ويلتفت بعضهم إلى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم إلى بعض، يتداعبون في سيرهم، يحمدون ربهم على ما صدقهم على ما أباح لهم من جواره؛ فبينا هم في سيرهم إذ دنوا من عرش ربهم وعاينوا حسن حجبه ونوره واستحثوا السير شوقاً وحباً وفرحاً به. فتوهم نجائبهم تطير في سيرها باعتدال موكبهم وإشراق وجوههم والملائكة قد أحدقت بالنجائب تزفهم زفاً إلى ربهم حتى انتهوا إلى فحصة عرش مولاهم، فتوهم سعة تلك الفحصة وحسن نورها ببهجتها وزهرتها، وقد وضعت الزرابي والنمارق على كثبان المسك، عرف كل فتى منهم ما أعدله، والكراسي لأهل صفوته من عباده، وأحبائه من خلقه، لما دنوا إلى ما أعد لهم من المنابر والكراسي والزرابي والنمارق، فثنى رجله الحسنة من الركاب إلى منبر أو كرسي أو زريبة؛ فتوهم ثنيهم أرجلهم إلى كراسيهم، حتى استووا عليها، فتوهم نعيم تلك الأفخاذ والأوراك المرتفعة على الكراسي بالدر والياقوت، فأعظم به من مقعد وأعظم بولي الله متربعاً. فلما أخذ القوم مجالسهم واطمأنوا في مقعدهم والحجب تسطع نورها فيا لذة أعينهم، وقد أصغوا بمسامعهم منتظرين لاستماع الكلام من حبيبهم؛ فتوهمهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر منازلهم، فهم في القرب منه على قدر مراتبهم، فالمحبون له أقربهم إليه قرباً إذ كانوا له في الدنيا أشد حباً، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه، ثم الأنبياء عليهم السلام ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم، فأعظم به من مزور، وجلَّ وتكبر من مزور.

فتوهم مجلسهم بحسن كرامتهم وجمال وجوههم وإشراقها لما رهقها نور عرشه عز وجل وإشراق حجبه فلو صح لك عقلك ثم توهمت مجلسهم وإشراق كراسيهم ومنابرهم وما ينتظرون من رؤية ربهم، ثم طار روحك شوقاً إليه لكنت بذلك حقيقاً. فيا عظم ذلك عند عاقل عن الله، مشتاق إلى ربه ورؤيته، فتوهم ذلك بعقل فارغ لعل نفسك أن تسخى بقطع كل قاطع يقطعك عنه، وترك كل سبب يشغلك عن التقرب فيه إلى ربك. فلما استوى بهم المجلس واطمأن بهم المقعد وضعت لهم الموائد ليكرم الله عز وجل زواره بالإطعام والتفكيه لهم، ووضعت الموائد لزوار الله عز وجل وأحبائه من خلقه، قامت الملائكة على رؤوسهم معظمين لزوار الرحمن، فوضعت الصحاف من الذهب فيها الأطعمة وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوا، فقدموا أيديهم مسرورين بإكرام ربهم لهم، لأن حقاً على كل مزور أن يكرم زائره فكيف بالمزور الكريم الواحد الجواد الماجد العظيم. فتوهم وهم يأكلون فرحين مستبشرين بإكرام مولاهم لهم، حتى إذا فرغوا من أكلهم قال الجليل لملائكته: اسقوهم، فأتتهم الملائكة، لا الخدام والولدان، بأكواب الدر وكؤوس الياقوت، فيها الخمر والعسل والماء والألبان؛ فتوهم تلك الكأسات وتلك الأكواب بأيدي ملائكة الرحمن، فتناولها أولياء الله فشربوها، فتنازع حسن الشراب في وجوه الزوار، فلما سقتهم الملائكة

ما أمرهم الله به من الأشربة قال الجليل: اكسوا أوليائي، فتوهم الملائكة، وقد جاءت بالحلل التي لم يلبسوا في الجنة مثلها، ثم قاموا على رؤوسهم فألبسوها أهل كرامة الله ورضوانه، فتوهم وقد صيروها من فوق رؤوسهم حتى صارت على أقدامهم فأشرقت بحسنها وجوههم، ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم، فارتفعت السحاب بحسنها وشدة ضيائها ونورها لحمل ألوان الطيب من المسك وجميع طيب الجنان ما لم يجدوا مثل رائحته، فتوهمها تمطر عليهم والطيب يتساقط عليهم مطراً حتى علا جباههم وثيابهم، فلما أكلوا وشربوا وخلعت الملائكة الخلع وطيب مطر السحاب، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ثَمَّ برفع الحجب؛ فبينا هم في ذلك إذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله، فلما نظروا إليه وإلى ما لم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذي لا يشبهه شيء من خلقه، فلما نظروا إليه ناداهم حبيبهم بالترحيب منهم وقال لهم: مرحباً بعبادي، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة، لأنهم يسمعون كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء. فتوهمهم، وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لاستماع كلامه، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم، فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباً بهم، ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه، فحياهم بالسلام فردوا عليه أنت السلام(40) ومنك السلام ولك حق الجلال والإكرام. فمرحباً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي وخافوني في الغيب وقاموا مني على كل حال مشفقين، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم أثرة لرضاي عنهم، قد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي، تمنوا عليَّ ما شئتم. فلو رأيتهم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه في دنياهم من رعاية عهده وحفظه ودوام خوفهم منه، وقد استطاروا فرحاً لما شكر لهم رعايتهم حقه، وحفظ منهم خوفهم، ورحب بهم محبة لهم، إذ كانوا بذلك إياه في الدنيا يعبدونه؛ استطارت قلوبهم فرحاً وسروراً إذ لم يفرطوا في طاعته ولم يقصروا في مخافته، فاغتبطوا لما كانوا به لله في الدنيا يدينون من شدة خوفهم ورعاية حقه وحفظه، فردوا إليه الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله، أنهم قد قصروا عما كان يحق له عليهم إعظاماً له واستكثاراً، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربه واستماع كلامه، فقالوا عند ذلك: وعزتك وجلالك وعظمتك وارتفاع مكانك ما قدرناك حق قدرك ولا أدينا إليك كل حقك فأذن لنا بالسجود، فقال لهم ربهم: إني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة وأرحت لكم أبدانكم فطالما أتعبتم الأبدان وأكنتم لي الوجوه، فالآن أفضتم إلي كرامتي ورحمتي فتمنوا علي ما شئتم- وفي بعض الحديث أنهم إذا نظروا إليه خروا فيناديهم بكلامه تبارك وتعالى ارفعوا رؤوسكم، ليس هذا حين عمل، هذا حين سرور ونظر- فتوهم بعقلك نور وجوههم وما يداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا مليكهم، وسمعوا كلام حبيبهم، وأنيس قلوبهم، وقرة أعينهم، ورضا أفئدتهم، وسكن أنفسهم، فرفعوا رؤوسهم من سجودهم، فنظروا إلى من لا يشبهه شيء بأبصارهم، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى الرضا والرفعة. فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الذي لا يقع عليه الأوهام، ولا يحيط به الأذهان، ولا تكيفه الفكر، ولا تحده الفطن، الذي لا تؤويه الأرحام، ولم تنقله الأصلاب، ولا يبدو فيكون مطبوعاً منتقلاً؛ الأزلي القديم الذي حارت العقول عن إدراكه، فكلّت الألسنة عن تمثيله بصفاته، فهو المنفرد

بذاته عن شبه الذوات، المتعالي بجلاله على مساواة المخلوقين؛ فسبحانه لا شيء يعادله، ولا شريك يشاركه، ولا شيء يريده فيستصعب عليه أو يعجزه إنشاؤه، استسلم لعظمته الجبارون، وذل لقضائه الأولون والآخرون، نفذ في الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون، وبما لو كان كيف يكون، فأحاط بالأشياء علماً، وسمع أصواتها سمعاً، وأدرك أشخاصها...(41) ونفذ فيها إرادته، وأمضى فيها مشيئته، فهي مدبرة...(41). وقربها اختراعاً فكانت عن إرادته، لم يتقدم منها شيء قبل وقته الذي أراد فيه كونه، ولم يتأخر فيه عن نهيه، وكيف يستصعب عليه من لم يكن شيئاً مذكوراً حتى كونه سبحانه الواحد القهار.

خاتمة:

يروي السبكي في طبقات الشافعية عمن حضر وفاة الحارث فقال: إن رأيت ما أحب تبسمت إليكم وإن رأيت غير ذلك تنسّمتم في وجهي قال: فتبسم ثم مات(42).

هذا وقد كان الإمام أحمد بن حنبل قد تعرض لمحنة في خلق القرآن وزج في السجن فلما خرج في زمن الواثق ثم قرّبه المتوكل عظمت مكانته الاجتماعية فوق ما هي عليه من علم واسع بالحديث وبالفقه. وقد سلف أن أوضحنا إنكاره على الحارث استفاضة وعظه وتكلمه في شيء من علم الكلام فانقطع الحارث عن نشاطه واختفى في داره ببغداد. فلما مات لم يصلِّ عليه إلا أربعة نفر(43).

الحواشي:

(1)-ج 10 ص 84-73.

(2)-ج 8 ص 214.

(3)-طبعة مصطفى البابي الحلبي 1359/ 1940 ص 13.

(4)-ج 2 ص 37 طبعة القاهرة.

ابن الصلاح (517/581هـ-1181/1245م) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري سكن الشام ففوض إليه الملك الأشرف التدريس في دار الحديث بدمشق.

أبو منصور (ت 420هـ/ 1029م) هو عبد القاهر بن طاهر البغدادي من أئمة الأصول في عصره يقال أنه كان يدرّس في سبعة عشر فناً ترك طائفة من الكتب منها الفرق بين الفرق وهو مطبوع.

أبو عاصم العبادي 375/ 985- 458/ 1066 هو محمد بن أحمد الهروي الشافعي ولد بهراة وتفقه بها وبنيسابور. من تصانيفه كتاب في طبقات الفقهاء.

(5)-المصدر نفسه ص 41.

(6)-المصدر نفسه ص 42.

إمام الحرمين هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني 419/ 1028- 478/ 1085 بنى له الوزير نظام الملك "المدرسة النظامية في نيسابور" من أعلام الشافعية والأشاعرة من كتبه "البرهان في أصول الفقه" و"الشامل في أصول الدين". وهو أستاذ أبي حامد الغزالي.

(7)-طه (20- 5).

(8)-ص (38- 75).

(9)-الفجر (89- 22).

(10)-إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وصاحب "الموطأ" (93/ 712- 179/ 795).

(11)-أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وصاحب "المسند" (164/ 780- 241/ 855) في أيامه دعا الخليفة المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل وخلفه المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن وأطلق سنة 220 ولما ولي المتوكل بعد أخيه الواثق أكرم الإمام وقدّمه.

(12)-سفيان بن سعيد الثوري صاحب مذهب في الفقه من أئمة العلم والعمل والتقوى (97/ 716- 161/ 778).

(13)-داود بن علي الأصفهاني إمام المذهب الظاهري. كان حافظاً مجتهداً كثير الورع (201/ 816- 270/ 884).

(14)-من علماء الكلام الأوائل له كتب منها "الصفات" و"الرد على المعتزلة" (ت نحو 245/ 860).

(15)-من متكلمي أهل السنة في القرن الثالث الهجري. له كتب ورسائل في الرد على النظّام.

(16)-علي بن إسماعيل الأشعري من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة وإمام المتكلمين المجتهدين. تلقى مذهب المعتزلة ثم رجع وجاهر بخلافهم (260/ 874- 324/ 936) انظر الحاشية التالية.

(17)-محمد بن عبد الوهاب الجبائي صاحب مذهب في الاعتزال (235/ 849- 303/ 916) والمناظرة مشهورة نوردها هنا لزيادة الفائدة:

"سأل الشيخ (الأشعري) رضي الله عنه أبا علي فقال: أيها الشيخ ما قولك في ثلاثة مؤمن وكافر وصبي؟ فقال: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصبي من أهل النجاة. فقال الشيخ: فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن؟ قال الجبائي: لا. يقال له: إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها. قال الشيخ: فإن قال التقصير ليس مني. فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن. قال الجبائي: يقول له الله كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت

ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف. قال الشيخ: فلو قال الكافر يا رب! علمت حاله كما علمت حالي فهلا راعيت مصلحتي مثله فانقطع الجبائي.

(18)–فرق متعددة يزعم بعضهم أن معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية وإما جسمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن.

(19)–نسبة إلى محمد بن كرام السجزي (ت نحو 255/869) كان ممن يثبت الصفات إلا أنه انتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه.

(20)–مكتبة الحسين التجارية 1368/ 1948 ص 127–123.

(21)–ج 8 ص 215–214.

(22)–ج 2 ص 40.

(23)–تاريخ بغداد ج 8 ص 214.

(24)–طبقات الشافعية ج 2 ص 39.

(25)–تاريخ بغداد ج 8 ص 215 وشقيق هو ابن إبراهيم البلخي من مشاهير مشايخ خراسان كان أستاذ حاتم الأصم.

(26)–الجواري الأولى الأوانس والثانية الزوارق. وهنا نحب أن ننوه بهذا التشبيه وهو أن الفتاة تبدو في رقتها ورشاقتها ولطفها وحركتها كالزورق المنساب فوق الماء. وهو تشبيه استعمله الشاعر الفرنسي بودلير في قطعة شعرية له بعنوان السفينة الجميلة فيقول مفصلاً وجوه الشبه:

,Quand tu vas balayant l’air de ta jupe large

,Tu fais l’effet d’un beau vaisseau qui prend le large

,Chargé de toile, et va roulant

(Suivant un rhytme doux, et paresseux, et lent (Les fleurs du mal

(27)-حلية الأولياء ج 10 ص 75-74.

(28)-ج 10 ص 278-277.

(29)-المصدر نفسه ص 75.

(30)-الرسالة ص 12.

(31)-مطبعة النهضة 1928 ص 152.

(32)-المصدر نفسه ص 178.

-(33)

(34)- ص 74. ورد في النص: أخرج بنا نصحن. فصححه المستشرق الانكليزي أربري في كتابه عن الصوفية نطحن وترجم جان غويار Jean Gouillard حين نقل كتاب أربري إلى الفرنسية نطحن كذلك. والصحيح نصحر أي نذهب إلى الصحراء في خارج بغداد.

(35)-المصدر نفسه 92-90.

(36)-حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لمتن التلخيص (معارف نظارت جليله، استانبول) ص 406-405.

(37)-الرحمن 55- 37.

(38)-المعارج 70- 8، 9.

(39)-الصافات 37- 61.

(40)-الحشر 59- 23.

(41)-بياض في الأصل.

(42)-ص 38- 39.

(43)-تاريخ بغداد ص 216.

تعليق:

كتب طه حسين مقدمة لنسخة رسالة الغفران التي نشرها كامل كيلاني جاء فيها:

"شبهها قوم بحديث "دانت" وربما وفقوا في هذا التشبيه، وزعم قوم أن "دانت" تأثر بها في حديثه، ولعلهم قاربوا الصواب في هذا الزعم. ولكن هذا كله لا يعنيني الآن، وإنما يعنيني حين أضع كتاباً خاصاً لدرس هذه الرسالة درساً علمياً. كل هذا لا يعنيني الآن، وإنما الذي يعنيني أن أحداً من كتاب العرب وشعرائهم لم يسبق أبا العلاء إلى هذا الفن من الكتابة والفهم والخيال ولم يلحقه فيه، وإنما انفرد به أبو العلاء انفراداً في كل هذه الآداب وفي كل هذه الحضارات التي عاشت هذه القرون المتصلة وأزهرت فيها هذا الإزهار الغريب.

نعم، رسالة الغفران هي آية الأدب العربي من هذه الجهات كلها قصة غريبة لا تقع في الأرض وإنما تقع في السماء. وليس الغرض منها الفكاهة وحدها ولا النقد وحده، وليس الغرض منها كفراً ولا إيماناً، وإنما هذا كله هو الغرض من هذه الرسالة".

لا شك في أن رسالة الغفران هي آية من آيات الأدب العربي من وجوه كثيرة. ولكن الحارث المحاسبي في كتابه "التوهم" قد سبق "إلى هذا الفن من الكتابة والفهم والخيال" وإن كان الغرض متفاوتاً في كل من الكتابين. المقصد في كتاب التوهم الوعظ والترغيب والترهيب والرد على المعتزلة في إمكان رؤيته تعالى في الجنة لأوليائه الأصفياء، والمقصد من رسالة الغفران متشعب ومتعدد فيها النقد وفيها اللغة وفيها تصحيح بعض الروايات وفيها إيمان عميق صنف به مؤلفها حسب اعتباراته من هو أهل لدرجات النعيم ومن لا يستحق الوصول إليه. ولا نجزم هل اطلع المعري على كتاب التوهم الذي كتبه المحاسبي قبله بأكثر من قرن أو أوحى إليه هذا الكتاب برسالته الفائقة فهما متباعدان جداً ولكن المبدأ والإطار واحد وهو وصف ما يجري في الآخرة حسب تصور كل منهما وحسب مقصده من ذلك. ثم إن الشاعر الإيطالي دانتي (1265- 1321م) لم يطلع على خبر هذين الكتابين وإنما اطلع على ترجمة إحدى قصص المعراج التي نقلت في عهده إلى اللاتينية ثم سطا على ما فيها من تصوير وخيال وتنكر أي تنكر لينبوع إلهامه، ومنهل خياله، وقد ألحقنا ببحثنا هذا محاضرة للمستشرق الإيطالي فرنسسكو غابريلي ألقاها في مدرج جامعة دمشق، وترجمها الأستاذ الدكتور موسى الخوري، ونشرها في مجلة المجمع العلمي العربي عام 1959 في المجلد (33) والجزء الأول. أوضح فيها تأثر دانتي بقصة المعراج تلك ونحن نعيد نشرها بعد الاستئذان من المترجم ليستتب النظر وتتحقق نسبة التأثر، ويستبين الأخذ والاستفادة.

الفهرس

المقدمة	5
كيف كان الحارث يؤلف كتبه	91
(1)	22
(2)	52
(3)	72
خاتمة:	03
الحواشي:	13
تعليق:	63